

2000

ظاهرة الوحي القرآني في دراسة المستشرقين الفرنسيين

أحمد نصري

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، المحمدية

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [Religion Commons](#)

Recommended Citation

نصري, أحمد (2000) "ظاهرة الوحي القرآني في دراسة المستشرقين الفرنسيين" *Dirassat*. Vol. 10 , Article 7.
Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol10/iss10/7>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

ظاهرة الوحي القرآني في دراسة المستشرقين الفرنسيين

Cover Page Footnote

لورافشيا باغلييري "دفاع عن الاسلام" ص47، نقله الى العربية منير البعلبكي، ط الخامسة يناير 1981، دار العلم-1 للملايين، بيروت لبنان.

ظاهرة الوحي القرآني في دراسة المستشرقين الفرنسيين

أحمد نصري

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - المحمدية

مقدمة

جذب القرآن الكريم بطريقته المثلى في عرض عقيدة وشريعته بأسلوبه المتفرد في صياغة أفكاره ومبادئه، اهتمام كثير من المستشرقين ويعود سر ذلك الاهتمام الى الأسباب الآتية :
أولا : إن القرآن قدم حقائق تخالف ما جاء في التوراة والإنجيل خاصة ما يتعلق بالتوحيد، ونبوة عيسى عليه السلام.

ثانيا : إن القرآن أنكر فكرة شعب الله المختار، وفكرة الأقانيم الثلاثة وألوهية عيسى وقتله وصلبه ومسألة الخطيئة والفداء.

ثالثا : إن القرآن اتهم الأحرار والرهبان بتحريف التوراة والإنجيل عن أصولها.

رابعا : إن القرآن صحح بعض الظواهر الفاسدة في المجتمعات الإنسانية.

خامسا : أن القرآن أعطى حلولاً شافية لكافة لمشاكل ومسائل عجزت اليهودية والمسيحية عن أن تبديا رأيهما فيها مخافة الإحراج وكشف الزيف والتحريف، تقول المستشرقة الإيطالية لورافيشيا فاغلييري : «لقد أزال الإسلام السرية التي أضفاها الآخرون على دراسة الكتب المقدسة»⁽¹⁾.

(1) لورافيشيا فاغلييري «دفاع عن الإسلام» ص. 47، نقله الى العربية منير البعلبكي، ط. الخامسة يناير 1981، دار العلم للملايين، بيروت لبنان.

سادسا : إعجاز القرآن في مبناه ومعناه ، وفي أسلوبه وهديه لجميع الثقيلين على امتداد الزمان والمكان .

وتأسيسا على ذلك شمر المستشرقون من الغرب والشرق على اختلاف مللهم ونحلهم ومشاربهم الفكرية على محاربة القرآن ومكافحته وذلك لتحقيق هدفين رئيسيين .

الأول : الحيلولة دون تسرب مبادئ القرآن وأفكاره الى بني جلدتهم فتفقد التوراة والإنجيل مصداقيتها ومشروعيتها .

الثاني : التقليل من قيمة القرآن والتوهين من سمعته عند المسلمين حتى يتمكنوا من تنفيذ مخططاتهم الصليبية الغربية والشيوعية الإلحادية والصهيونية العالمية ، وقد أشار جلادستون الى هذه الحقيقة في قولته المشهورة : « ما دام هذا القرآن موجودا فلن تستطيع أوربة السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون في أمان » (2) .

ومن أجل الوصول الى هذين الهدفين ، ظهر لهم أن يدرسوا القرآن الكريم دراسة شاملة ، قبل البدء في مكافحته ، لاكتشاف خباياه واستكناه أسراه واستقصاء موضوعاته واستجلاء أسلوبه ثم يجعلوا من تلك الدراسة معاول يضربون بها . يقول المبشر « تناكلي » يجب أن نستخدم القرآن وهو أمضى سلاح في الإسلام ضد نفسه ، حتى نقضي عليه تماما يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح في القرآن ليس جديداً والجديد ليس صحيحاً (3) .

وهكذا حارب المستشرقون القرآن الكريم حربا ، جربوا فيها كل أنواع التهم والشبهات والمطاعن ، فتارة يطعنون في نسبته الى الله سبحانه وتعالى ، والزعم بأن محمدا قد افتراه ، وتارة بالتشكيك في تعاليمه والخروج على آدابه وتارة بعدم صلاحيته للحياة وقصره على العبادات من صلاة وزكاة وتارة يتهمون القرآن بالتناقض وتارة بفساد النظم وأخرى بإنكار الإعجاز الى ما شاء الهوى من ألوان التهم . وظلت هذه التهم تنتقل من جيل الى جيل ، وتظهر من وقت الى آخر كلما خفت مدتها أثاروها ثانية وأعادوها مبدعة كما يقول المثل العربي ، بأسلوب مهذب وكأنها وليدة اللحظة .

(2) الإسلام في مفترق الطرق لمحمد أسد ، ص 39 ترجمة ، عمر فروخ .

(3) نقلا عن كتاب « التبشير في البلاد العربية » لمصطفى الخالدي وعمر فروخ ، ص 4 ، ط . 1982 ، المكتبة العصرية صيدا لبنان .

فلم يترك المستشركة منفذا للطعن إلا ولجوه ولا موضعا للعورات إلا تصيدوه، يقول محمد عبد الغني حسن « وكل ناحية من نواحي القرآن لم تسلم من اتهامات المبطلين وادعاءاتهم حتى القصص القرآني كان موضعا للتشكيك فيه »⁽⁴⁾.

والغريب في الأمر أن نجد نفس الأراء تتكرر في كتابات المستشرقين قديما وحديثا، لا يستثنى من ذلك مستشرق دون آخر، أو مدرسة دون أخرى، بل الأغرب من ذلك أيضا، أن تجدهم يسلكون نفس المنهج ونفس الأسلوب في عرض آراءهم حول القرآن الكريم، ويقول محمد عبد الغني حسن « قل أن تقرأ لباحث عربي أو مستشرق مؤلفات في الإسلام أو يتصل بموضوع الإسلام من قريب أو بعيد إلا وجدت فيه هنا وهناك مغامز وعثرت بين السطور على أشياء خفية يحاولون بها غرضا معيناً، ويدبرون أمراً مرسوماً، وكأنهم - إلا قلة نادرة من منصفهم وأهل العلم الحقيقي فيهم - جميعاً على هدف واحد، ويجمعون على غرض واحد، ينسون في سبيله مقتضيات العلم وما يتطلبه من الإنصاف والحيطة وعدم التحيز، والبعد عن التعصب وابتغاء وجه المعرفة وحدها، وبهذا يشوهون قدر العلم، ويجعلون القارئ على جانب من الحذر دائماً منهم، لما يشيرونه من ريب حول أغراضهم من الشك في سلامة طريقتهم ونياتهم »⁽⁵⁾.

والملفت للنظر أن تجد بين المستشرقين من يتناول في دراسته حضارة الإسلام والفكر الإسلامي، بكل عدل وإنصاف وموضوعية، إلا أنه حالما يخوض في دراسة القرآن وشخصية الرسول، وجدته يغير جلده ولهجته ويفقد صوابه ويتحول علمه إلى معول للهدم ولسانه إلى رأس أفعى تبث السموم هنا أو هناك، ويؤكد هذه الحقيقة محمد محمود الصواف بقوله « إن المستشرقين ليفقدون أعصابهم وينسون مقامهم العلمي وترتج نفوسهم وتضطرب قلوبهم حينما يشغلون أنفسهم بالبحوث الإسلامية وأحقاد العصور هي التي ملأت الصدور، وأملت عليهم هذا الحق والغيظ الذي لم يستطيعوا كظمه في كل حالاتهم »⁽⁶⁾.

(4) محمد عبد الغني حسن، المرجع السابق، ص. 105.

(5) نفسه، ص. 5-6.

(6) محمد محمود الصواف « المخططات لمكافحة الإسلام »، ص. 820، بدون طبعة وتاريخ، دار الإصلاح، الدمام - السعودية.

هذا وإذا استقصى الباحث هذه الدراسات يجد أن غالب الكتابات الاستشرافية حول القرآن الكريم تتسم بالسلمات التالية : المبالغة في الشك وكثرة الافتراضات ، والاعتماد على الضعيف من الآراء ، والشاذ من القراءات والمتشابه من الآيات ، بل إنه «إذا تعارضت مقولة تاريخية مع قصة قرآنية فالتاريخ هو الصادق الذي لا يرقى إليه شك ولا اتهام، ولو كان على أضعف الأقوال وأقلها رجحانا» (7).

وحين نبحث عن السبب نجد أن المستشرقين لم يتعاملوا مع القرآن على أنه موضوع علمي تجري عليه قواعد المنهج العلمي من دراسة وبحث وتحليل مجرد من العواطف والانفعالات والمؤثرات الخاصة ، وإنما تعاملوا معه على أنه متهم يقف أمام قضاته ، يقول محمد أسد «ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن إن يعالج على أنه موضوع بحث في البحث العلمي ، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته ، إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام الذي يحاول إثبات الجريمة وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع ، فهو مع اقتناعه شخصيا بإجرام موكله لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شيء من الفتور اعتبار الأسباب المخففة» (8).

وإذا ما استبعدنا مسألة المؤثرات العقلية والعاطفية والسياسية والدينية وما إلى ذلك ، نجد من المستشرقين من جمع في كتابته عن القرآن بين البحث والتحليل والنزاهة والإنصاف ، إلا أن جهله بأسرار اللغة العربية فوتت عليه صفة الموضوعية ، وأدخلته في زمرة المستشرقين المتهمين ، وفي معنى ذلك يقول محمد عبد الغني حسن : «على أنك إذا ضمنت الإنصاف فوق دقة البحث في باحث غير عربي فإنك لا تقدر أن تدخل عليه من ناحية أسرار اللغة العربية التي ليست لغته ، ولم يعرفها وينفذ إلى كنهها نفوذ أبنائها إليها . وتلك مشكلة نلقاها عند علماء الاستشراق قديما وحديثا فأني لهم بفهم النصوص وسبرها والوصول إلى أعماقها وفهم خصائص العربية والإحاطة بدقائقها التي لا تتاح إلا للعربي وحده» (9).

ويمكن أن نصنف اتهاماتهم للقرآن الكريم وادعاءاتهم تحت ستة نقاط رئيسية وهي :

أولا : إنكار الوحي القرآني ، واعتبار القرآن من عمل محمد (ﷺ) .

(7) محمد عبد الغني حسن ، المرجع السابق ، ص . 5 و 1 .

(8) محمد أسد ، المرجع السابق ، ص . 53 .

(9) محمد عبد الغني حسن ، المرجع السابق ، ص . 7-9 .

ثانيا : الادعاء بأن القرآن حرف بعد وفاة الرسول ﷺ .

ثالثا : البحث في الحروف المفردة في أوائل بعض السور، والادعاء أنها اختصارات لأسماء مالكي النسخ التي استخدمها زيد بن ثابت لجمع القرآن في مصحف واحد كما قال بذلك جولدزيهر⁽¹⁰⁾ .

رابعا : القول إن القرآن ليس بنظام مجتمع كامل، وإنما هو محاولة للإصلاح .

خامسا : القول إن القرآن أسير للسجع والقافية، كما يقول بذلك نولدكه⁽¹¹⁾ .

سادسا : هناك نقطة محورية في بحوث المستشرقين القرآنية وهي ما يتعلق بـ «تقسيم القرآن الى مراحل حيث انبرى لمعالجة ودراسة هذه النقطة كثير من المستشرقين .

والذي يهمنا في دراستنا هذه هي النقطة الأولى أي إنكار الوحي القرآني، حيث ظل السواد الأعظم من المستشرقين عند دراستهم لهذه النقطة ينطلقون من ثوابت معرفية ذات صلة بديانتهم التي ترى أن آخر تجليات الوحي قد تركزت في موسى أو عيسى وبالتالي فإن النبوة يستحيل ظهورها في أحد بعدهما، ومن هذه الفرضية يتعاملون مع القرآن على أنه حدث بشري محض فهو إما عملية انتقائية اعتمدت على الكتب السماوية الأخرى، وذلك بالنظر الى أخبار الأنبياء وقصص الأقسام السابقين التي وردت فيه، أو إنتاج ومزج بين عناصر الديانات الوثنية التي كانت سائدة في القرن السابع الميلادي الى آخر هذه الهرطقات التي لا معنى لها .

وكي نلامس الحقيقة في أدق جوانبها، نرى من الواجب علينا أن نبحث في حقيقة الوحي في الديانات النصرانية واليهودية، وكذا حقيقة الوحي في الفكر الأوربي الحديث، وبعد ذلك ندخل مباشرة الى الموضوع الرئيسي الذي هو : ظاهرة الوحي القرآني في دراسة المستشرقين الفرنسيين .

ظاهرة الوحي عند أهل الكتاب

يعرف الوحي عند النصارى بأنه «حلول روح الله في الكتاب الملهمين» . وتبعا لهذا التعريف، فإن الاتصال بالله يتم مباشرة عن طريق الحلول ولا يحتاج الى الواسطة، ومن ثم لا

(10) انظر، اجنتس جولدزيهر، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة د. عبد الحليم النجار، ط. الثالثة 1403هـ-1983م، دار إقرأ بيروت، لبنان.

(11) Théodor Noldeke, Remarques critiques sur le style et le syntaxe du Coran, A. (11) Maisonneuve, édition, Paris.

يقتصر الوحي على الأنبياء وحدهم كما هو مفهوم الإسلام، ولكن يشمل أيضا الكتاب الملهمين. ولهذا نجد الكنيسة الكاثوليكية ترى أن بابا روما معصوم ويستحيل فيه ارتكاب الإثم والخطيئة لأن روح القدس ينطق من خلاله بوصفه خليفة بطرس الرسول، إلا أن سر العصمة لم يعد قاصرا على بابا روما وحده، بل تعداه إلى باقي البطارقة فزعموا لأنفسهم العصمة بفعل روح القدس التي تحل فيهم. والوحي بهذا المعنى لا يختلف عن الإلهام في شيء، ويمكننا أن نلامس هذه الحقيقة أيضا من خلال قول المستشرق لويس غردييه «أن الموحى إليه في المسيحية علة وسطية حرة، يحركها الله العلة الأولى وصاحب الوحي وفقا للوجه الذي قامت هي عليه حرة، ثم إنه يسع الموحى إليه أن يسخر لغايته الآثار والمستندات البشرية ويجوز فيها تبعا لأسلوبه ولسانه الخاص»⁽¹²⁾.

ويرى النصاري بأن عيسى عليه السلام لم يكن يتلقى الوحي بالكيفية التي كان يتلقى بها الأنبياء الآخرون عليهم السلام، والذي عبر عنها القرآن الكريم في سورة الشورى وهي قوله تعالى [«وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم»]⁽¹³⁾. ويرون أن الله تعالى إذا اتخذ الشجرة حجابا لتكليم موسى عليه السلام، فإن المسيح عليه السلام، اتخذ الله حجابا يكلم من خلاله العباد، وهذا ما يعنون بقولهم حلول اللاهوت في الناسوت، أي أن الله تعالى حل في المسيح عليه السلام، وبناء على هذا التفسير فإن الله والمسيح صاروا شخصا واحدا.

وقد رد ابن تيمية على هؤلاء النصاري ردا عنيفا من عدة وجوه، فوصل إلى أن القول بحلول الله واتحاده بالمسيح لا يقوم عليه دليل في كتبهم ولا كتب المسلمين، وهو قول مرفوض نقلا وعقلا، يقول ابن تيمية «وجماع هذا أن النبوات المتقدمة والكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل والزبور وسائر نبوات الأنبياء لم تخص المسيح بشيء يقتضي اختصاصه باتحاد اللاهوت به وحلوله فيه، كما يقوله النصاري، بل لم يخصه به ما نزل على محمد ﷺ في قوله تعالى «إنما المسيح ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه» [سورة النساء، 171]»⁽¹⁴⁾.

(12) لويس غردييه، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ص. 3، ص. 181، ترجمة صبحي الصالح، الطبعة الأولى، 7 سنة 1967، دار العلم للملايين بيروت لبنان.

(13) سورة الشورى، الآية 51.

(14) شيخ الإسلام ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ب. 2، ص. 191 بدون تاريخ، مطبعة المدني، مصر.

وقد أورد ابن تيمية بعض النصوص الصحيحة التي تبطل قولهم بالاتحاد منها قول المسيح عليه السلام، لما سئل عن علم الساعة فقال «لا يعلمها إنسان ولا الملائكة الذين في السماء ولا الإبن إلا الأب فقط». وعقب على هذا النص بقوله «فنفى عن نفسه علم الساعة، وهذا يدل على شيئين: على أن اسم الابن إنما يقع على الناسوت دون اللاهوت، فإن اللاهوت لا يجوز أن ينفي عنه علم الساعة، ويدل على أن الابن لم يكن يعلم ما الله، وهذا يبطل قولهم بالاتحاد فإنه لو كان الاتحاد، حقا كما يزعمون لكان الابن يعلم ما يعلمه الله ويقدر عليه، فإنه هو الله عندهم والناسوت لا يتميز عندهم عن اللاهوت فيما يوصف به المسيح من كونه عالما قادرا يحيي ويميت»⁽¹⁵⁾. والنصارى في حديثهم عن روح القدس يختلفون اختلافا كبيرا عما في الإسلام فهم يرون أن روح القدس هي حياة الله، وهذا ما سيجعلهم يقولون إن المسيح ابن الله بمعنى أنه من روح الله، ولكنهم في نفس الوقت لا يفسرونه بأن روح القدس حلت في غير المسيح، من الأنبياء وأيضا الحواريين إلا أنهم لا يفسرون في هذه الحالة بحياة الله، حتى يسلموا من التناقض، ولكن التناقض يظل قائما، فإما أن نفسر روح القدس بأنها حياة الله سواء حلت في المسيح أو في غيره، وإما لا نفسرها بذلك في جميع الحالات ولكن أن نفسر روح القدس بأنها حياة الله مع المسيح فقط فهذا ما لم يقم عليه دليل، وسواء مع المسيح أو مع الأنبياء الآخرين فتفسير روح القدس بأنها حياة الله مع المسيح فقط فهذا ما لم يقم عليه دليل، سواء مع المسيح أو مع الأنبياء الآخرين فتفسير روح القدس بأنها حياة الله لم يرد في أي كتاب من الكتب المنزلة وإنما ذلك وقع من تعريف النصارى وتبديلهم.

يقول ابن تيمية رحمه الله «روح القدس لم يعبر بها أحد الأنبياء عن حياة الله التي هي صفته، بل روح القدس في كتب الله يراد بها الملك، ويراد بها الهدى والوحي والتأييد فيقال: روح الله، ووحي الله، وملك الله، ورسول الله لم يرد به أحد من الأنبياء بقوله روح الله وروح القدس ما يريده الإنسان بقوله «روحي»⁽¹⁶⁾. ويقول أيضا «وقد يعبر بعض الناس بلفظ الروح عن الحياة والله تعالى حي له حياة، ولكن لم ترد الأنبياء عليهم السلام بقولهم: روح القدس حياة الله بل أرادوا به ما يجعله الله في قلوب الأنبياء وأيدهم به كما يراد بنور الله ذلك»⁽¹⁷⁾.

(15) نفسه، ج. 2، ص. 218.

(16) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج. 2، ص. 247.

(17) نفسه، ج. 2، ص. 248.

وقد قادهم هذا التفسير الى القول بألوهية روح القدس وذلك في مجمع القسطنطينية الأول سنة 381 ميلادية، وقد قرر هذا المجمع أن روح القدس هو «الرب المحي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والابن مسجود له وممجّد».

وقد قدّم المؤرخ النصراني ابن البطريق، التعليل الذي قاد المجمع الى القول بألوهية روح القدس حيث قال : «ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله وليس روح القدس شيئاً غير حياته فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق فقد قلنا إن روح الله مخلوقة، وإذا قلنا إن روح القدس مخلوقة قلنا إن حياته مخلوقة، وإذا قلنا إن حياته مخلوقة فقد زعمنا أنه غير حي وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به، ومن كفر به وجب عليه اللعن».

إنه كما نلاحظ تعليل انطلق من مقدمة خاطئة، فلا يعقل أن تكون النتيجة صحيحة. والمقدمة كما رأينا تحتاج الى دليل يثبت صحتها، ولا يوجد في نصوص الكتاب المقدس عندهم ما يبرهن على صحتها، بل إن أهل العلم الصحيح عنهم يرفضون ذلك يقول عنهم ابن تيمية « وقد تكلم على هذا من تكلم عليه من علماء النصارى الذين هدامهم الله، وبينوا ما وقع في ذلك من تحريفهم لمعاني الكتب التي عندهم، وذكروا مما عندهم من النصوص الصريحة بأن المسيح عبد الله ليس هو الله مما يتبين به بطلان قولهم» (18).

ولسنا نحن المسلمين وحدنا الذين ننكر حلول اللاهوت في ناسوت المسيح، بل يشاركنا اليهود في ذلك، ولكن مع فارق، وهو أننا لا ننكر نبوة المسيح في حين أن معظم اليهود ينكرون ذلك أصلاً.

أما اليهود فيتفقون على أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام، ويضيفون بأنهم هم أيضاً سمعوا كلام الله بأذانهم أثناء تكليمه لموسى، فقد جاء في سفر الخروج الأصحاح العشرون «... وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد. وقالوا لموسى تكلم أنت معنا فتسمع. ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت. فقال موسى للشعب لا تخافوا. لأن الله إنما جاء لكي يمتحنكم ولكي تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا. فوقف الشعب من بعيد وأما موسى فأقترّب الى الضياب حيث كان الله».

(18) نفسه، جـ 2، ص. 217.

فقال الرب لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل . أنتم أنتم من السماء تكلمت معكم لا تصنعوا معي آلهة فضة ولا تصنعوا كلم آلهة ذهب . مذبحا من تراب تصنع لي وتذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك غنمك ويقرك في كل الأمان التي فيها أضع لا سمي ذكراياتي إليك وأباركك . وإن صنعت لي مذبحا من حجارة فلا تبته منها منحوته . إذا رفعت عليها أزمليك تدنسها ولا تصعد بدرج الى مذبحي كيلا تنكشف عورتك عليه» (19) .

ولكن القرآن الكريم يقدم لنا غير ما تقدمه التوراة، ويبين لنا الظروف التي تم فيها تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام، قال عز وجل [وهل آتاك حديث موسى، إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلني آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى، فلما أتيتها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنيك بالواد المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى] (20) .

فهذه الآية توضح كيف كان ابتداء الوحي الى موسى عليه السلام وتكليم الله عز وجل إياه، وذلك عندما كان عائدا من أرض حطين ومعه زوجته . إذ ذاك أمره الله تعالى بتبليغ دعوته الى فرعون فقال « اذهب الى فرعون إنه طغى » (21) .

ويجب أن نعلم بأن موسى كان وحده عند تكليم الله تعالى له، على خلاف ما تصوره التوراة من خلال النص السابق، حيث تزعم بأن موسى قاد الشعب الى لقاء الله، ولهذا عن اليهود أنهم أيضا سمعوا كلام الله بآذانهم في لهيب النار المشتعلة (22)، وهذا ادعاء يحتاج الى دليل ولا يوجد دليل في القرآن الكريم، باعتبار أنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل، وسلم من التحريف، قال تعالى ذكره : « وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين، ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » (23) .

(19) التوراة، سفر الخروج، الإصحاح العشرون، الآيات 18-19 .

(20) سورة طه، الآيات 9-13 .

(21) سورة طه، الآية 24 .

(22) محمد رشيد رضا : الوحي المحمدي، ص : 148، الخامسة، 1367هـ/1948م، دار المنار مصر .

(23) سورة الأعراف، الآيات : 142-143 .

ويشير القرآن الكريم الى أن موسى عليه السلام أوتي التوراة والألواح قال تعالى : «وأتينا موسى الكتاب»⁽²⁴⁾، وقال أيضا «وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء»⁽²⁵⁾، فهل الألواح هي التوراة أم غيرها⁽²⁶⁾، يرى ابن كثير أن هذه الألواح مشتملة على التوراة، ثم أورد رأيا آخر يرى بأن الألواح ليست هي التوراة، وأن الله تعالى أعطاها لموسى قبل التوراة أما متى أنزلت التوراة ؟ فالقول الراجح أنها أنزلت بعدما أهلك الله تعالى فرعون وملائه⁽²⁷⁾، وذلك في قوله تعالى «ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى»⁽²⁸⁾.

ونجد اليهود يميزون بين التوراة وبين التلمود، ذلك أنهم يعتبرون التوراة كلام الله المنزل على موسى كتابة في حين يعتبرون التلمود في جزئه الأول المنشأة كلام الله المتحدث به الى موسى شفويا⁽²⁹⁾، وفي جزئه الآخر الجمارا وهي شرح لهذا الكلام الشفوي.

وهذا ادعاء تزعمه اليهود، لأنه لا يوجد له سند في كتاب الله، ولا يعقل أن ينزل عن الله فما كان الله لينزل وحيين فيأمر بتقديس أحدهما، ويتساهل في التلاعب بالآخر. وهذا ما صنعه اليهود، فهم يقدسون التلمود ولا يجيزون مخالفته، ويعتبرون ذلك جريمة تستحق الموت على خلاف التوراة فمخالفتها لا تستحق العقوبة فقد جاء على لسان الحاخام أيا : احذريا بني واتبع تعاليم التلمود لا التوراة، فالتوراة تتضمن أحكاما مخالفتها الموت، وأما من يخالف عرفا جاء في التلمود «فالقتل عقابه».

والنبوة عند اليهود ميراث يرثه الإنسان كما أنها صناعة تعلم في المدارس⁽³⁰⁾، بل إن النبوة يمكن الاستيلاء عليها عن طريق الحيلة والفكر والدهاء والمؤامرة فقد جاء في سفر التكوين الاصحاح السابع والعشرين «وحدث لما شاخ إسحاق وكلت عيناه عن النظر أنه دعا

(24) سورة الإسراء، الآية 2.

(25) سورة الأعراف، الآية 145.

(26) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، م 2 ص : 246، بدون تاريخ، دار احياء الكتب العربية، فيصل الحلبي، القاهرة.

(27) نفسه. م 3 ص 390.

(28) سورة القصص، الآية : 43.

(29) Anthologie juive : des origines à nos jours, éd Mod Fleg, Ed: Flammarion, p: 138

(30) محمد رشيد رضا : المرجع السابق، ص : 148.

عيسو ابنه الأكبر وقال له يا ابني . فقال له إنني قد شخت ولست أعرف يوم وفاتي . فالآن خذ عدتك جعبتك وقوسك واخرج الى البرية وتصد لي صيدا . واصنع لي أطعمة كما أحب وأتني بها لأكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت»⁽³¹⁾ . ففعل يعقوب باتفاق مع أمه ، فأحضر الطعام الى أبيه ، وكان هذا الأخير أعمى ، فأكل الطعام وقال «ليكن لا عنوك ملعونين ومباركوك ومباركين»⁽³²⁾ .

فإذا كانت التوراة تتصور النبوة على أنها ميراث وعلى أنها صناعة تتعلم ، وعلى أنها تنال عن طريق المكر والدهاء فإن القرآن برئ من هذا التصور فالنبوة بيد الله كباقي نعمه يهبها لمن يشاء من عباده الصالحين ، قال عز وجل في محكم كتابه «الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير»⁽³³⁾ .

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن هذه التوراة ليست هي تلك التي أنزلت على موسى عليه السلام ، وحيا من الله تعالى ، بل هي مما كتبه اليهود بأيديهم وقالوا هذا من عند الله ويصدق عليهم قوله تعالى : «... ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»⁽³⁴⁾ .

ظاهرة الوحي في الفكر الأوروبي الحديث

لقد ظلت أوروبا حتى القرن السادس عشر تفسر كتبها الدينية على أنها وحي من الله ، ومع بداية منتصف القرن السادس عشر وما صاحبها من شكوك واكتشافات علمية ، أخذ الغربيون يشككون في معتقداتهم الدينية ، فهذا فرنسيس بيكون (1561-1626) يفتح باب الشك بشيء من الاعتدال ويقول «قد لا أعتقد بعدم وجود عقل مدبر لهذا العام»⁽³⁵⁾ .

وفي سنة 1656م ، استدعي سبينوزا (1622-1677م) أمام رجال الكنيسة بتهمة الهرطقة ، جاء في رسالته في الدين والدولة : «إن الكتب السماوية المنزلة لا تفسر الأشياء بأسبابها

(31) التوراة، الإصحاح السابع والعشرون، سفر التكوين، الآيات 1-4

(32) نفسه ، الآية 28 .

(33) سورة الحج ، الآية 75 .

(34) سورة آل عمران ، من الآية : 78 .

(35) ول ديورانت ، قصة الفلسفة ، ص 147-204 ط . الثالثة 1975 ، مكتبة المعارف ، بيروت ، لبنان .

الثانوية، ولكنها تقدمها وترجمها بطريقة وأسلوب قوي متدفق للتأثير على الناس ودفعهم إلى الإيمان والنسك والعبادة وخاصة الفئة الجاهلة القيم المتعلقة عندهم»⁽³⁶⁾.

وظهر في القرنين السابع عشر والثامن عشر الملاديين، مذهب عرف أصحابه بالإلهيين يعتقدون بالله واحدا وينكرون الأديان الموحى بها ويرون أنه كان للناس منذ أبعد الأزمنة دين طبيعي قائم على الصلات بين الله وبين الناس بدون واسطة. ويرى الكاتب الفرنسي فولتير (1694-1779): «أن فكرة التأليه، إنما اخترعها دعاة ماكرون من الكهنة والقساوسة»⁽³⁷⁾.

وهكذا استمرت الشكوك في الفكر الغربي بشكل واضح وتعالص الصيحات معلنة أن مسألة الوحي من بقايا الخرافات القديمة، وعللت ما جاء من الوحي في الكتب القديمة بأنه إما باختلاف من المتنبيين أنفسهم لجذب الناس إليهم، وإما هذيان يعترض بعض العصبيين فيخيل إليهم أنهم يرون أشياء تكلمهم وهم لا يرون في الواقع شيئا⁽³⁸⁾.

ومجمل هذه الصيحات تحاول قطع الصلة التي كانت الكتب الدينية المنزلة أقامتها بين السماء والأرض فظهرت المدرسة الماركسية، فأرجعت الظاهرة الدينية إلى انعكاس التفوق فوق الطبيعة في ذهن الإنسان البدائي حيث إنه كان يفترض وجود قوى ما فوق الطبيعة تحمّل مسؤولية الكوارث الطبيعية، ولهذا كان على الإنسان أن يهادن هذه القوى بعبادتها وتقديم الهديا والقرابين لها، فكان يتصورها على أنها تملك من القوة ما تستطيع به التأثير في حياته سواء بالخير أو بالشر، ثم أخذ الدين يتطور نتيجة لتطور المعارف الإنسانية، فاكشاف الإنسان أن الخطر لا يأتيه من القوى الطبيعية وإنما يأتيه من القوى الاجتماعية والاقتصادية.

وظهرت المدرسة الاجتماعية مع دوركايم التي ترى أن الظاهرة الدينية اجتماعية في تكوينها، مثلها مثل الظواهر الأخرى، نشأت عن عبادة السلف، وظهرت أيضا المدرسة النفسية، فحللت نشأت هذه الظاهرة تحليلًا يختلف عن التحليل الماركسي، وإن كانت تتفق معه في قطع الصلة بين السماء والأرض في تفسير هذه الظاهرة، فالإنسان في نظر هذه المدرسة

(36) نفسه.

Voltaire, Essai sur les momeurs, Annales de l'empire, Tome trois, p. 33, Paris, (37)

Formes et Gie, librairie-éditeurs.

(38) فريد وجدي، دائرة المعارف القرن العشرين، ص. 712-713، ط. 3، 1971، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

يشعر بضعف، وهذا الضعف منشأ تلك العلاقة الوطيدة التي كانت بين الطفل والإبن وتتمثل هذه العلاقة في دور الرعاية والحماية من طرف الأب اتجاه الطفل لكن الطفل عند كبره سيستقل عن الأب وبالتالي تنتهي رعايته له فمن سيعوضها ؟

إن الطفل وقد أصبح رجلا سيتعرض لأزمات خطيرة، فمن سيحميه ؟ إنه وهو طفل يحميه الأب، أما وقد أصبح رجلا، هل سيلجأ الى الأب، خصوصا وقد ظهر له من خلال تجاربه حدود الطاقة البشرية وضعفها، إذن فهو سيبحث عن مصدر آخر يحميه ويكون ذا طبيعة علوية ولكنه مصبوغ بصبغة إنسانية مبالغ فيها فهو قوي، قاس عطوف يعرف كل شيء، ويطالب بخضوع لا مشروط «قم بهذا لأنني أمرتك به» وهذا هو الإله السماوي الذي سيقوم بدور الأب .

ويقول وحيد الدين خان في نفس هذا المعنى «والذي يثير الدهشة أن الدين جاء على لسان الأنبياء يشتمل على حقائق أبدية لم تخطر على بال أحد من الناس في أي زمان، فلو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات، فمن أين يأتي هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا طريق لهم الى العلم بها» ؟ (39)

إن الغرب ما يزال يصر على قطع الصلة بين الناس وخالقهم برفضه لظاهرة الوحي الإلهي، معتبرا إياها من الإلهام النفسي، فلقد ظهرت البحوث الروحية في أمريكا سنة 1846، يلخص فريد وجدي نتيجة من نتائج الأبحاث التي توصل إليها العلماء في هذا المجال، ثبت لديهم وجود شخصية راقية للإنسان وراء شخصيته العادية، وهي التي تهديه بالخواطر الجيدة، وهي التي تعطينا، الإلهامات الطيبة الفجائية في الظروف المرحية، بل هي التي تنفث في روح الأنبياء وما يعتبرونه وحيا من الله، وقد تظهر لهم متجسدة فيحسبونها من ملائكة الله هبطت عليهم من السماء(40) فبناء على هذا التفسير لا وجود لذلك الرابط الذي يربط بين السماء والأرض أي بين الله تعالى وبين النبي الموحى إليه، فما يحصل للنبي لا يكون بنزول الملك من السماء ليبلغه كلام الله بل هو إنتاج الشخصية الباطنية التي يسلكها كل فرد فهي التي ترشده وتعلمه .

(39) وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص. 33، ترجمة ظفر الإسلام خان، مراجعة وتقديم عبد الصبور شاهين .

(40) نفسه، ص. 112 .

ظاهرة الوحي القرآني في دراسة المستشرقين الفرنسيين

لقد غامر الاستشراق الفرنسي بتقديم مجموعة من التفسيرات للوحي، وما دامت المغامرة في ميدان البحث العلمي لا تخلو من فائدة فإننا نقر في يقين جازم أن المغامرة في تفسير الوحي قد أثبتت زلل قدم المستشرقين الفرنسيين خاصة، وتعثر أفلامهم، حيال كثير منهم. ونقطة الخطأ التي ينطلق منها المستشرقون عموما والفرنسيون منهم خاصة في البحث في هذه الظاهرة هي إنكار الوحي أساسا مما يؤدي بهم الى القول إن القرآن من صنع محمد ﷺ وهذا الموقف له ما يبرره، وهو أن جمهرة كثيرة منهم لم يفهموا حقيقة الوحي والنبوة ولم يعرفه العلاقة التي تربط بينهما، ومن ثم راحوا يطبقون في دراستهم لظاهرة الوحي مقاييس العلوم التجريبية التي أثبتت الدراسة والبحث عجزها التام عن تقديم أي تفسير صحيح لهذه الظاهرة، بحيث وقفت عند حدود «ظواهر الأشياء» ولم تستشف ما وراء هذه الظواهر، ولم تصل الى الأعماق والجذور.

ونحن إذا تتبعنا جزئيات تفسيراتهم لهذه الظاهرة، نجدها تركز على ثلاثة موضوعات رئيسية :

الموضوع الأول : الظروف التي تلقى فيها محمد أول بلاغ إلهي

الموضوع الثاني : فتور الوحي

الموضوع الثالث : العوارض التي تعتري النبي ﷺ عند نزول الوحي

وقبل الذهاب في تفاصيل هذه الآراء فنحن مدعوون، منذ البداية الى محاولة تحديد مصطلحي الوحي والإلهام على الرغم مما يكتنف هذا التحديد من صعوبة في اللغة الفرنسية، فهذا هو المنطلق الصحيح لتحديد نظرة الاستشراق الفرنسي للوحي.

تعريف الوحي والإلهام

لكلمتي الوحي والإلهام، خصوصا كلمة الهام، ثم إننا إذا أمعنا النظر في تعريفهم للوحي فإننا نجد عندهم مفهوما آخر يختلف عن المفهوم الإسلامي الذي حدده القرآن، وكان أولى أن نسميه إلهاما فهو لا يختص بالأنبياء وإنما يشمل جميع الناس. وفي ردنا على هذه المسائل،

سوف نوضح الفرق بين الوحي والإلهام، ونبدأ أولاً بتعريف الوحي، ونقول: إن الوحي عند اللغويين من وحي وأوحى، فنقول وحيته إليه وأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره، وكلمة الوحي تستعمل للإشارة ولكل ما ألقيته إلى غيرك، والكتابة والرسالة والأفهام، كلها وحي للمعنى المصدري قال رؤبه بن العجاج:

وحي لها القرار فاستقرت وشدها بالرسيات الثبت

وذكر اللغويون لكلمة الوحي معاني كثيرة منها:

1. الإلهام الفطري للإنسان كالوحي إلى أم موسى: وأوحينا إلى أم موسى أن أرضه أرضيه» (41).
2. الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل: وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون» (42).
3. الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء، كإيحاء زكريا، قال تعالى «فخرج على قومه من المحراب، فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وتشيا» (43).
4. وسوسة الشيطان وتزيينه الشر في الإنسان، كما في قوله تعالى «وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم» (44).
5. ما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه كما جاء في قوله تعالى «إذ يوحى ربك إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا» (45).
- وقد غلب استعمال الوحي على ما يلقي إلى الأنبياء من عند الله أو هو على حد الاصطلاح الشرعي «إعلام الله تعالى أنبياءه إما بكتاب أو برسالة ملك أو منام الهام» (46).

(41) سورة القصص، الآية 7.

(42) سورة النحل، الآية 67.

(43) سورة مريم، الآية 11.

(44) سورة الأنعام، الآية 121.

(45) سورة الأنفال، الآية 12.

(46) انظر، الجوهري، الصحاح في اللغة والعلوم، م. 1، ص. 673، تقديم عبد الله العلايلي، ط. الأولى 1974، دار الحضارة العربية، بيروت، أبو البقاء، الكليات القسم الخامس، ص. 35-36 الراغب الأصبهاني، المفردات في غريب القرآن، ص. 536، بدون تاريخ، المطبعة الميمنية بمصر، ابن منظور، لسان العرب، م. السادس، مادة الوحي، ص. 4787-4789.

أما الإلهام «فهو ما يلقي في الروح بطريق الفيض، وقيل الإلهام ما وقع في القلب من علم، وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بالآية، ولا نظر في حجة وهو ليس بحجة عند العلماء إلا عند الصوفيين والفرق بينه وبين الإعلام أن الإلهام أخص من الإعلام لأنه قد يكون بطريق الكسب وقد يكون بطريق التنبيه»⁽⁴⁷⁾.

ويتضح لنا من خلال هذين التعريفين أن الفرق بين الوحي والإلهام وللمزيد من التوضيح، نقول :

أولاً : «أن الوحي يحصل بواسطة الملك، ولذلك لا تسمى الأحاديث القدسية بالوحي وإن كانت كلام الله، أما الإلهام فقد يحصل من الحق بغير واسطة الملك».

ثانياً : أن الوحي من الشهود المتضمن للكشف المعنوي لأنه إنما يحصل بشهود الملك وسماع الكلام، بينما الإلهام من الكشف المعنوي.

رابعاً : إن الوحي مشروط بالتبليغ دون الإلهام⁽⁴⁸⁾.

الموضوع الأول : الظروف التي تلقى فيها محمد أول بلاغ إلهي

لقد تساءل كازيميرسكي M. KASIMIRSKI عن الظروف التي حملت الرسول ﷺ على الاعتقاد بأنه أوحى إليه، ثم قال «لنكن حذرين، فعند كثير من الموحى إليهم، وكذلك عند كثير من الناس لا توجد فكرة واضحة للاختلاف الموجود بين الموضوعية الصحيحة والذاتية الغرورية، إنه من العسير أن نستعمل دائماً في ظل الغموض إسم مكر أو خبث.

ولن يفيد أيضاً أن نزع أنه كان مصاباً بالصرع أو فريسة لحالة جنون ديني، إن الحالة النفسية الغير طبيعية لم تكن لتناقش، إن ما يهم ليس أنه يشبه المصروع أو المجنون، ولكن بالتحديد ما هو وجه الاختلاف بينه وبين هؤلاء المجانين والمصروعين فهناك مجانين كثيرون ومصروعون كثيرون لكن لم يكن أحد منهم مؤسساً لديانة الإسلام»⁽⁴⁹⁾.

(47) الجرجاني، كتاب التعريفات، باب الألف، ص. 34، ط. الأولى 1403هـ - 1983.

(48) أبو البقاء، المرجع السابق، باب الألف، ص. 285-286.

(49) M. Kasimirski, Coran, Tome premier, p. 12-13.

وتحدث إدوارد مونتيه عن حال رسول الله ﷺ قبل البعثة وتصور أن النبي كان على استعداد كامل لاستقبال الوحي من شدة ما عاناه من الأزمات التي صادفته في صغره، وزاده على أن جعل هذه الأزمات سببا في إصابة محمد بالهذيان، حتى أخذت تتجلى له الملائكة في خلوته، ولم يلبث مونتيه طويلا عن هذا التعليل، فذكر أن كثرة تفكير محمد أيضا فيما عليه قومه من شرك وضلال خلق في ضميره ثورة، ويتضح لنا ذلك بجلاء من قوله: «لم يتلق محمد الوحي عندما بلغ سن الأربعين لكن تأويله المعزول أهله منذ سن بعيد لاستقبال الوحي والذي هيأه لتلك الأزمات العصيبة التي مني بها منذ صغره، وعلى أثرها أصيب بالهذيان وأخذ يتجلى له الملائكة في خلوته التي اعتادها في الصحراء، هذه الظواهر بدأت عنده نتيجة للضغط والثورة التي أحدثتها» (50).

في حين يرى ريجس بلاشير «أن ظهور دعوة الرب أي الوحي - تمت على مرحلتين، في البداية عن طريق التفكير، وبعد ذلك عن طريق الرؤية» (51).

والحق أن مثل هذه الادعاءات قد ألفنا سماعها من كثير من المستشرقين، فهذا كارل بروكلمان يقول: «أغلب الظن أن محمدا قد انصرف الى التفكير في المسائل الدينية في فترة مبكرة جدا، وهو أمر لم يكن مستغربا عند أصحاب النفوس الصافية من معاصريه الذين قصرت العبادة الوثنية عن إرواء ضمائرهم الروحي» (52).

وفي ردنا على هذه الادعاءات نقول:

من الأمور المسلم بها عند المؤرخين المسلمين والغربيين على السواء، أن بعثة محمد ﷺ، كانت على رأس الأربعين وهذه السن الذي يستحيل أن يبتدئ أو يبدع فيها الإنسان علما أو فنا، أو يسن فيها شرعا أو يضع قانونا، أو أن ينهض في العالم بانقلاب عظيم أو عمل خطير، مما لم يكن قد ظهر استعداده، وأخذ بمقدمات في ريعان الصبا وشرخ الشباب (53).

(50) E. Montel, l'Islam, Pagot et Cie, Paris 1921, p. 12.

(51) R. Blachère, le problème de Mahomet, p. 40, 1ère éd., P.U.F. 1952, p. 40.

(52) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص. 34 نقله الى العربية، نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، ط. 9، 1981، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

(53) محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، ص. 302، ط. 5 1367 هـ - 1948 م در المنار، مصر.

وتواثرت الرويات الصحيحة على أن محمد لم يظهر طيلة تلك الفترة بأي مظهر عقلي وعلمي ولا حتى مادي ينبئ بمستقبله ذلك وأني له ذلك وهو اليتيم الفقير، الأمي الذي لم تكن لديه مواهب أدبية ظاهرة ولم يملك من أسباب الغنى والقوة ما يعينه على بلوغ مركز السلطة والجاه، ويجعله في نظر قومه عظيماً وعزيزاً بل «كان راعياً للغنم، يقوم بين الفينة والأخرى ببعض التجارة تارة لنفسه وتارة لزوجته خديجة»⁽⁵⁴⁾.

على أي لم تكن حالة محمد هذه تؤهله لتولي أي شيء من أمور قریش الدينية أو الدنيوية، فمن غير اللائق والمعقول بمقاييس البشر أن يمكنه من زمام القيادة الدينية والزعامة الدنيوية طالما هذا حاله وتلك وضعيته، وإن عرف عندهم بالأمين «لما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة»⁽⁵⁵⁾ وأحبوه لذلك، غير أن هذا الحب لم يغير من واقع حاله شيئاً، ولم يدفع قومه إلى توليته إلى قيادة المجتمع.

وحتى محمد لم يلتفت إلى هذه الأشياء، ولم يعبأ بها ولم يسع إلى أمر من أمور القيادة، بل كان منذ طفولته ميالاً إلى الوحدة، تواقاً إلى العزلة مبتعداً عن جهالة قومه وضلالتهم، تاركاً عبادتهم، فلم يعبد معهم صنماً ولا عظم وثناً وكان متديناً بفرائض العقول في قول جميع الفقهاء والمتكلمين من توحيد الله تعالى وقدمه وحدوث العالم وفنائه، وشكر المنعم، وتحرير الظلم، ووجوب الإنصاف وأداء الأمانة.

واختلف أهل العلم هل كان قبل مبعثه متعبداً بشريعة من تقدمه من الأنبياء فذهب أكثر المتكلمين وبعض الفقهاء من أصحاب الشافعي وأبي حنيفة إلى أنه لم يكن متعبداً بشريعة من تقدمه من الأنبياء لأن لو تعد بها لتعلمها ولو عمل لظهر منه ولو ظهر منه لاتبعه فيها الموافق ونازعه فيه المخالف⁽⁵⁶⁾.

يقول محمد رشيد رضا «التحقيق في صفة حال محمد ﷺ، من أول نشأته وإعداد الله تعالى إياه لنبوته ورسالته : هو أنه خلقه كامل الفطرة ليعبثه بدين الفطرة، وأنه خلقه كامل العقل الاستقلالي الهيولاني ليعبثه متمماً لمكارم الأخلاق وأنه بغض إليه الوثنية وخرافات أهلها ورذائلهم من صغر سنه حبب إليه العزلة حتى لا تأنس نفسه شيئاً مما يتنافسون فيه من الشهوات

(54) ابن سعد، الطبقات الكبرى، م. 8، ص. 125-130 (د. ت.) دار صادر، بيروت.

(55) انظر القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص. 172، تحقيق علي محمد البجاوي، بدون تاريخ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(56) انظر الماوردي، أعلام النبوة، ص. 222، ط. الأولى، 1393هـ - 1973م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

واللذات البدنية، أو منكرات القوة الوحشية، كسفك الدماء والبغي على الناس، أو المطامع الدنيئة كأكل أموال الناس بالباطل ليعثه مصلحا لما فسد من أنفس الناس، ومزكيا لهم بالتأسي به وجعله المثل البشري الأعلى لتنفيذ ما يوجه إليه من الشرع الأعلى» (57).

ونستنتج من ذلك كله، أن محمدا كان غافلا عن أمر الوحي لم يبحث عنه كما تصور ذلك موريس جودفري ديمومبين : «إن النبي، كان تائها عبر الجبل، مثل أي شاعر، باحثا عن الإلهام واعتكف في غار حراء الى أن أصابه فوحان إلهي» (58).

فلو كان الأمر كذلك، ما كان له أن يشعر بالرعب والخوف عندما رأى جبريل وسمع صوته حتى أنه قطع خلوته في الغار، وعاد الى بيته مسرعا. تروي أحاديث بدء الوحي أن النبي ﷺ خاف على نفسه لما رأي الملك أول مرة، ولم تجد زوجته خديجة رضي الله عنها، أمامها من وسيلة لتهدأ من روعه إلا أن تذكره بما سلف من عمله الصالح، وخلق الطيب ثم أخذته بعد ذلك الى ابن عمها ورقة بن نوفل ليفسر له الحالة التي كان عليها ويطمئنه على نفسه» (59).

وبعد، فإن هذا ليس شأن من يفكر في الوحي ويبحث عن الإلهام، يقول عبد الرحمان السهيلي «كل حديث يزعم فيه أن الرسول ﷺ، كان يعرف فيه أنه نبي، هو حديث كذب لا يعتد به، لأنه ﷺ، لم يكن يعرف حتى ليلة الوحي أنه نبي» (60).

فالوحي إذا حقيقة مستقلة خارجة عن ذاتية محمد ﷺ...

وعن شعوره بعيدة عن خياله الداخلي (61) «كما تصور ذلك مكسيم رودنسون، ولم تكن له يد في إحداث الوحي، فلم يتفق أبدا - كما رأينا سابقا - أنه سعى أن يكون نبيا رسولا، بينما الذي حدث أن الله تعالى اختاره، على الرغم من كل الظروف المعاكس لذلك الاختيار، فكان اختياره له، أكثر تحد لكل المقاييس التي تعارف عليها البشر، حتى أن قومه استنكروا هذا

(57) محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ص. 112.

(58) Maurice Gaudetfroy-Demombynes, Mahomet, Ed. Albin Michel, Paris, 1975, p. 68.

(59) انظر صحيح مسلم بشرح النووي، ج. 2، ص. 197-204، الوحي الى رسول الله ص، ط. الأولى بالأزهر-مصر، 1347هـ-1929م، المطبعة المصرية.

(60) عبد الرحمن السهيلي، الروض الأنف، ج. 2، ص. 170، تحقيق وشرح عبد الرحمن الوكيل، ط. الأولى، 1367هـ النشر للطباعة-القاهرة.

(61) Maxim Rodinson, Mahomet, Ed. du Seuil, p. 100.

الاختيار لما علموه من حاله، فقالوا كما حكى ذلك القرآن الكريم «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»⁽⁶²⁾. لكنه اختيار من الله الذي يعلم حيث يجعل رسالته. فالمسألة إذا أبعد من التفكير والتأمل والخيال الداخلي، فلو كان الوحي يأتي بهذه الطرق لما كان لمحمد فيه نصيب، فلقد سبقه إلى التفكير والعزلة، خلق كثر أجهدوا أنفسهم في التأمل وسعوا حثيثا إلى الوحي والنبوة، لما سمعوا عن قرب ظهور آخر نبي هذا الزمان، وما أصابهم شيء ولا نالوا مطلبهم. يقول مالك بن نبي «من الوجهة النفسية ليس «لشعور» النبي أي دور في عملية الوحي وهو - بداهة - لا يحتوي على تيار الوحي الذي لم يأت بعد، أما «لا شعوره» فلم يكن له أن يلد تلقائيا فكرة مركبة أثبتتها التاريخ بصورة وضعية إيجابية»⁽⁶³⁾.

الموضوع الثاني : فتور الوحي

يقول ادوارد مونتييه «بما أنه لم يتلق الوحي في الحقبة الموالية لهذه الليلة الخالدة تساءل محمد هل كان لعبة في يد الشيطان، إن الإيمان بالتملك وقدرة الجن كانت منتشرة في هذا الوقت في الجزيرة، وفي أوقات أخرى كان له إحساس بأنه موضوع عناية إلهية خاصة. لأنه كان يصدق الرؤيا التي كان قد رآها لكن الشكوك ظهرت من جديد في ذهنه، هل هو موضوع مهمة إلهية أم أنه أصيب بالجنون ؟ إنه ذهب إلى حد التفكير في الانتحار»⁽⁶⁴⁾.

أما بلاشير، فيقول : «عرف محمد فترة كرب شنيع، وشعر أنه وقع ضحية شكوكه، وشك في بعثته وكان يظن أن ربه تخلى عنه للأبد إلا أن الملك حامل رسالة الله لم يتأخر عن الإسراع إلى زيارته ومنحه الثقة»⁽⁶⁵⁾.

إن الذي جاء به مونتييه وبلاشير هنا لا يختلف كثيرا عما أورده الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما، وإن كان العبير يخون كلا من مونتييه وبلاشير في صياغة الفكرة العامة للموضوع، لذلك نجد أنفسنا مضطرين إلى بيان وجه الحق في هذا الموضوع كي لا يبقى أي غموض أو التباس.

(62) سورة الزخرف، الآية 31.

(63) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص. 269، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط. 1981، دار الفكر، دمشق - سوريا.

(64) Ed. Montel, l'Islam, Payot et Cie. Paris, 1921, p. 12.

(65) R. Blachère, le problème de Mohamed, 1er éd. P.U.F., p. 41.

من الأدلة الثابتة على أن الوحي شيء منفصل عن ذاتية الرسول ﷺ، وعن إرادته، مسألة فتور الوحي، حيث قضت الحكمة الربانية أن يحتجب عنه الوحي، مدة تزيد عن الستين (66).

فحزن النبي لذلك الانقطاع المفاجيء حزنا شديدا وبدأ القلق يستبد به كما بدأ يشك في أن ما أتاه ربما يكون مسا من الجن، أو أن يكون من الشيطان، وذهب به التفكير مرارا، كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها - إلى أن يتردى من رؤوس شواحق الجبال، فكان كلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل، وقال يا محمد «أنت رسول الله حقا، فيطمئن لقل جبريل ويسكن له وتعود الثقة إلى نفسه بأن ربه ما ودعه وما قلى» (67)، واستنكر محمد علي أن يكون الرسول قد فكر في الانتحار وقال «علينا أن نقفز إلى استنتاج غير معقول ولا تبرره المقدمات فنزعم أنه مضى إلى هناك لكي ينتحر (بعد أن فتر الوحي). لقد كان من دأبه أن ينطلق إلى الجبال قبل تلقيه الوحي بزمان طويل ولقد كان طبيعيا، وهو النزاع إلى التأمل أن يلتمس العزلة في الجبال وهي خير مكان يستطيع فيه أن يفرغ للتحنت والتفكير. وهكذا فليس ثمة أيما سبب يدعوننا إلى الافتراض أنه قصد إلى الجبال وفي نيته أن ينتحر» (68).

قد يكون استنتاج محمد علي صحيحا ومعقولا إلى حد ما، لو لم ترو هذه القصة على لسان عائشة رضي الله عنها، وفي صحيح البخاري ومسلم.

إن الحكمة من فتور الوحي، تلتخص فيما يلي :

أولا : أن يذهب الخوف الشديد الذي اعترى محمدا ﷺ عند بدء الوحي في غار حراء.

ثانيا : أن يحصل عند النبي الشوق لرؤية الملك فيكون استقباله للوحي بعد ذلك على تشوق منه، غير مشوب بكراهية.

ثالثا : إن الله سبحانه أراد أن يظهر الانفصال التام بين شخصية محمد ﷺ قبل البعثة، وشخصيته بعدها، ليبين أن شيئا ما نزل من هذا الكتاب لم يطبخ في ذهن محمد سابقا.

(66) ابن كثير، فضائل القرآن، ص. 13، أشرف على تصحيحه وعلق عليه محمد رشيد رضا، مطبعة المنار، مصر، 1347هـ.

(67) R. Blachère, Le problème de Mohamed, 1er éd. P.U.F., p. 41.

(68) صحيح مسلم بشرح النووي، ج. 2، باب بدء الوحي إلى رسول الله (ﷺ)، ص. 205-206.

رابعا : إن الوحي كان ينزل حين شاء الله ويفتر على مشيئته لا دخل لمحمد في هذه المسائل والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى . منها على سبيل المثال حادثة إلفاك حيث أبطأ الوحي شهرا كاملا لرد هذه الريبة التي تكادت أن تعصف بقلب الرسول ، وتقوض صرح هذا الدين كله .

الموضوع الثالث : العوارض التي كانت تعتري الرسول عند نزول

الوحي

لقد تحدث مكسيم رودنسون عن العوارض التي كانت تعتري الرسول ﷺ ، عند نزول الوحي وقال : «إن نزول الوحي على النبي كان يمثل دائما تجربة مؤلمة شاقة ، بحيث يمتلئ وجه النبي عرقا ، والانتعاشات تهزه ويبقى ساعة من غير وعي ، وكأنه في حالة سكر ، لا يسمع ما يقال له ويعرق بغزارة ، حتى في الأوقات الباردة ، ويسمع أصواتا غريبة لسلاسل أو أجراس (69) .

ورأى موريس جد فري-ديمومبين «أن محمدا لم يستسلم بسهولة لضغط الملك ، يناقش ويدمدم كالجمل ، كما قالت الرواية ، الزبد يخرج من فمه وكذا العرق من جسمه ، حينما يأتيه الوحي وهو على ناقته ، هذه الأخيرة تخور قواها من شدة الثقل وتبرك ، ويسمع السلاسل ، ورواية تقول رنين الأجراس ، لكن الأجراس لم تكن معروفة في مكة» (70) .

نلاحظ عند أصحاب هذه الأقوال ، جهلا خطيرا ، بالعوارض التي كانت تعتري الرسول ﷺ ، خلال نزول الوحي من حالة خاصة ناشئة عن انفصاله عن بشريته ، واتصاله بالعالم الروحاني ، ويصفون هذه الظاهرة بالهوس (72) . ويقدمونها في صورة من صور الانحرافات النفسية ، وفي ما يلي بيان لوجه الحق في هذه المسألة .

(69) محمد علي ، حياة محمد ورسالته ، ص . 71 ، نقله الى العربية منير البعلبكي ، ط . الأولى 1963 ، دار العلم الملايين ، بيروت ، لبنان .

(70) M. Rodinson. Mahomet, p. 100.

(71) Maurice Gaudet, Demembynes, Mahomet, p. 71-72

(72) ومن المؤسف جدا أن نجد المفكر الفرنسي غوستاف لوبون يعد الرسول من المتهمين ، حين قال يجب عدم محمد من قبيلة المتهمين من الناحية العلمية كما هو واضح وذلك كأكثر مؤسسي الديانات ، ولا كبير أهمية لذلك ، فأولوا الهوس وحدهم لأدوا المراج البارد من المفكرين ، هم الذين ينشئون الديانات ويقودون الناس .

غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص . 144 ، نقله الى العربية عادل زعيتر ، بدون تاريخ ، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي ، وشركاؤه ، ولم يثبت تاريخيا سواء قبل البعثة أو بعدها ، أن محمد كان من المتهمين أو صاحب سلوك شاذ فلقد شهدت خديجة بحسن خلقه وطيب عشرته ، فقالت : كلا والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق «رواه البخاري ، باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله ، ج . 1 ، ص . 36» .

لقد سجل لنا أصحاب السيرة، ومدونو الأحاديث النبوية كل ما يتصل بكيفية نزول الوحي على محمد ﷺ وصوروا لنا العوارض التي كانت تبدو على الرسول أثناء نزول الوحي تصويراً دقيقاً، وما غفلوا عن جزئية صغيرة ولا كبيرة في هذا المجال .

قالت عائشة «إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال «يا رسول الله كيف يأتيك الوحي، فقال رسول الله ﷺ أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال : وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول . قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً» (73) .

تأتي شدة الوحي وصعوبته في هذه الحالة على الرسول، من أن الله سبحانه وتعالى أراد التقريب بين رسول روعي الذي هو جبريل عليه السلام، ورسول بشري من الناس الذي هو محمد ﷺ، وهنا تظهر قدرة الله في نفس محمد ﷺ، فيجردها من المؤثرات والعوارض المادية، كالمرض والخطأ والنسيان ومن شواغل الحياة الدنيا ويطهرها من الأحداث، ويغلب فيها الجانب الروحي حتى ترتفع عن المظهر المادي ويكون على أتم صفاء وكمال، وحينئذ يكون أهلاً لمناجاة الملك الروحاني - جبريل - وعلى أتم استعداد ليتلقى عن الملك ما شاء الله من الوحي، ولا يكون هذا مشوباً بشائبة تشوب صفاءه ولا خاضعاً لشيء من المؤثرات البشرية الغضب أو اضطراب الأعصاب .

وقد أشار الكرمانى في تعلقه على هذا الحديث، الى نفس الحقيقة، حين قال «إن سنة الله لما جرت من أنه لا بد من الروحانية عليه وهو النوع الأول أو باتصاف القائل بوصف السامع وهو النوع الثانى والدليل عليه تمثله رجلاً» (74) .

ويقول القسطلاني «وإنما كان هذا الضرب من الوحي أشد على النبي ﷺ، من غيره لأنه كان يرد فيه من الطبائع البشرية الى الأوضاع الملكية فيوحي إليه كما يوحي الى الملائكة بخلاف الضرب الآخر الذي أشار إليه ﷺ (75) . ويتضح من ذلك أن حالة الرسول كانت تتغير عند نزول الوحي، لما فيه من مخالفة العادة» (76) .

(73) صحيح البخاري، بشرح الكرمانى، ص. 250-28.

(74) نفسه، ص. 28.

(75) شهاب الدين القسطلاني : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ص. 59، دار الكتب العربية، بيروت، لبنان.

(76) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج. 1، ص. 21، صححه وعلق عليه، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، بدون تاريخ، دار المعرفة، بيروت، بيروت، لبنان.

وقد رأت خولة بنت ثعلبة الرسول حين نزل عليه الوحي، وشهدت ذلك عن كذب، وقال «فتغشى رسول الله عليه وسلم، ما كان يتغشاها ثم سري عنه» (77).

ورغم شدة معاناة الرسول من هذا النوع من الوحي، ورغم ما يبدو عليه من العوارض كالكرب والرعدة، والعرق الكثير والتغشي فقد كان ﷺ يستبقي وعيه وعقله كاملاً، وقد أثبت لنفسه ذلك حين قال مرة «فيفصم عني وقد وعيت ما قال» وقوله مرة أخرى «فيكلمني فأعي ما يقول الكرمانى فإن قلت فلم قال في الأول وعيت ما قال بلفظ الماضي، وفي الثاني بلفظ المضارع قلت لأن الوعي في الأول حصل قبل الفصم ولا يتصور بعده، وفي الثاني الوعي حالة المكالمة ولا يتصور قبلها، أو لأنه كان الوعي في الأول عند غلبة التلبس بالصفات الملكية، فإذا عاد إلى حالته العادية كان حافظاً فأخبر عن الماضي بخلاف الثاني فإنه على حالته المعهودة» (78).

وبهذا الوعي الكامل، نرى المبالغة والمناقضة بين الوحي وبين تلك الأعراض المرضية والنوبات العصبية التي تصفر فيها الوجوه، وتبرد الأطراف وتصلط الأسنان، وتنكشف العورات، ويحتجب نور العقل، ويخيم ظلام الجهل، لأنها كانت كما علمت مبعث نمو في قوة البدن، وإشراق في اللون، وارتفاع في درجة الحرارة، وكانت إلى جانب ذلك مبعث نور لا ظلمة، ومصدر علم لا جهالة، بل كان يجيء معها من العلم والنور ما تخضع العقول لحكمته، وتتضاءل الأنوار عند طلوعه (79).

ويقول مالك بن نبي «إذا نظرنا إلى حالة النبي، وجدنا أن الوجه وحده هو الذي يتحقق، بينما يتمتع الرجل بحالة عادية، وبحرية عقلية ملحوظة من الوجهة النفسية، بحيث يستخدم ذاكرته استخدماً كاملاً خلال الأزمة نفسها على حين يمحي وعي المتشنج وذاكرته خلال الأزمة، فالحالة بناء على هذه الملاحظات ليست حالة مرض كالشنج.

ونضيف أيضاً الأعراض الجسمية التي رويت عن النبي لا تظهر إلا في اللحظة التي تعترية فيها الظاهرة القرآنية، وفيها وحدها، أي في اللحظة الخاطفة للوحي.

(77) مسند الإمام أحمد بن حنبل، وضعه، محمد ناصر الدين الألباني، باب المرأة التي نزل فيها الوحي في حضرة رسول الله وشهدت ذلك في كتب، ج. 6، ص. 410-411، ط. الرابعة، 1983م، المكتب الإسلامي، بيروت.

(78) صحيح البخاري، شرح الكرمانى، ج. 1، ص. 28-29.

(79) محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص. 72، ط. الرابعة 1397هـ-1977م، دار القلم، الكويت.

هذا التلازم الملحوظ بين ظاهرة نفسية أساسا، وحالة عضوية معينة هو الطابع الخارجي المميز للوحي» (80).

على العموم هذه الطريقة واحدة من سبعة طرق أخرى (81)، لاتصال محمد عليه الصلاة والسلام، بالعالم الروحاني الأعلى، قال تعالى «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا» (82).

ومحمد في ذلك ليس بدعا من الرسل ولا أولهم، فالله سبحانه وتعالى أوحى إليه ﷺ، كما أوحى الى نوح وغيره من الأنبياء، قال تعالى «إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وأتينا داود زبوراً» (83).

إن ما وصل إليه المستشرقون الفرنسيون خلال دراساتهم لظاهرة الوحي بإرجاعها الى عوامل اجتماعية ونفسية وأعراض مرضية، لا يمكننا الاعتماد عليه ما دام محررها الأساسي هو نكران الوحي المحمدي من أصله.

ولقد تعامى هؤلاء عن حقيقة عظمية تتجلى في صمود القرآن الكريم - الممثل الحقيقي للوحي الرباني - أمام كل التحديات العلمية والنفسية والاجتماعية طيلة هذه القرون الطويلة.

وإن هذا الصمود القوي والدائم لدليل كاف وبرهان مقنع على أن هذا القرآن ما كان ليصدر عن عقل بشري، هذا العقل الذي أثبتت التجارب ضعفه وتقلباته وانسياقه وراء الأهواء.

(80) مالك بن نبي، الظاهر القرآنية، ص. 130-131.

(81) هناك طرق أخرى نزل بها الوحي على الرسول (ص) : الرؤيا الصادقة : وكانت مبدأ وحيد ﷺ، وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح. الثانية : ما كان يلقبه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه. الثالثة : أنه ﷺ، كان يتمثل له الملك رجلا، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانا. الرابعة : أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس وكان أشد عليه فيتلبس به الملك. الخامسة : أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين، كما ذكر الله في سورة النجم الآيات 7-13. السادسة : ما أوحاه الله وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها. السابعة : كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلم موسى بن عمران، هذه المرتبة ثابتة لموسى قطعا بنص القرآن، وثبتها لبنينا ﷺ، وهو في حديث الإسراء.

انظر ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدى خير العباد، ص. 78-80، ط. الثامنة 1405 هـ - 1985-1985م. مؤسسة الرسالة بيروت لبنان.

(82) سورة الشورى، الآية 51.

(83) سورة النساء، الآية 163.

بل يكون صادرا عن عقل آخر هو أكبر العقول وأسمها من التقلبات ، عقل مدبر حكيم ، عليم بما كان سيكون .

إن التجارب قد أظهرت على أن أي إنتاج أنتجده العقل البشري سواء عن طريق الإلهام أو الكشف أو التعلم ، ومهما بلغ هذا العقل من القوة والذكاء لا يسلم من الانتقادات والعيوب التي وجهت إليه سواء في عصر انتاجه أو في العصور التالية عليه .

وليس هذا هو نهاية الكلام في هذا الموضوع ، فلدينا مزيد وبراهن أخرى على مصدر القرآن الإلهي ، منها :

1. معلوم لدى أصحاب السير وأهل المعرفة ، أن النبي ﷺ كان أميا من قوم أميين فعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : «إننا أمة لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا ثلاثا حتى ذكر تسعا وعشرين» (84) وقد وصف الله نبيه ﷺ بأنه أمي أي أنه لا يعرف القراءة والكتابة ، وقال تعالى «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب المبطلون» (85) . يقول ابن تيمية «بين سبحانه من حالة ما يعلمه العامة والخاصة وهو معلوم لجميع قومه الذين شهدوه ، متواتر عند غاب وبلغت أخباره من جميع الناس : أنه كان أميا لا يقرأ كتاب ، ولا يخط كتابا من الكتب لا المنزلة ولا غيرها» (86) .

2. لقد تناول القرآن الكريم تواريخ الأمم السابقة التي كانت مجهولة لا يغالها في القدم . وما كان محمد ﷺ مؤرخا ولا ملما بدراسة اللغات القديمة كالهير وغليفية والحميرية والعبرية والقبطية وغيرها ، وكان للعب بها معرفة أو خبرة ولكنها كما قال القرآن «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين» (87) .

يقول الغزالي «وهذه كلها أشياء إلهية لا تعرف ألبتة بشيء من وجود تقدمت المعرفة بها لا بنجوم ولا بكشف ولا بخط ولا بزجر لكن بإعلام الله تعالى لو وحيه إليه» (88) .

(84) سنن النسائي ، شرح الحافظ جلال الدين السوطي ، وحاشية السندي ، ج . 4 ، كتاب الصيام ، حديث إنا أمة أحية ، ص . 139-140 ، ط . الثانية 1406 .

(85) سورة العنكبوت ، الآية 48 .

(86) ابن تيمية ، المرجع السابق ، ج . 4 ، ص . 31 .

(87) سورة خذت ، الآية 49 .

(88) أبو حامد الغزالي إحياء علوم الدين ، ج . 2 ، ص . 353 ، ط . الثالثة ، دار القلم بيروت ، لبنان .

3. الإنباء بالمستقبل القريب أو البعيد، فالإنباء بالماضي قد تتناقله ألسنة الناس جيلا بعد جيل أما الإنباء بالمستقبل فهو فوق طاقة البشر فوق التخمين خصوصا إذا أتى هذا الإنباء طبق الحقيقة التي أنبأها قبل وقوعها، لقد حفل القرآن بالعديد من هذه الأنباء، كغزوة بدر التي أخبر الله فيها نبيه بانهازم جمع قريش، وتولهم الأدبار، مع المسلمين كانوا أقل عددا وعدة، على عكس خصومهم القرشيين، وفعلا حدث ما أخبر به الله وتم النصر للمسلمين كانوا أقل عددا وعدة، على عكس خصومهم القرشيين، وفعلا حدث ما أخبر به الله وتم النصر للمسلمين قال تعالى «سيهزم الجمع وبولون الدبر» (89).

عن عكرمة قال «لما نزلت هذه الآية، قال عمر أي جمع يهزم أي يغلب؟ قال عمر فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ. يثب في الدرع وهو يقول «سيهزم الجمع ويولون الدبر فعرفت تأويلها يومئذ» (90).

4. في القرآن آيات فيها عتاب شديد لمحمد ﷺ، فلو كان القرآن من تأليفه ما ورد فيه هذا العتاب، فقد ورد ذلك، في مواضيع كثيرة مثل ما حدث له مع ابن أم كلثوم الأعمى، فقد ذكر غير واحد من المفسرين: «أن رسول الله ﷺ، كان يخاطب ويناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام وعباس بن عبد المطلب وأبي وأميه ابني خلف ويدعوهم الى الله تعالى ويرجو إسلامهم فقام ابن أم مكتوم وقال يا رسول الله علمني مما علمك الله وجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدري أنه مشغول مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله لقطعه كلامه، وقال في نفسه، يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والقللة والعبيد، فعبس رسول الله ﷺ وأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم فأنزل الله تعالى هذه الآيات: [عبس وتولى، أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعله يزكى، أو يذكر فتنفعه الذكرى، أما من استغنى، فأنت له تصدى، وما عليك ألا يزكى، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى، فأنت عنه تلهى» (91).

فكان رسول الله ﷺ، بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه يقول مرحبا بمن عاتبني فيه ربي».

5. إنه كثيرا ما جاء في القرآن آيات تخالف وتناقض ميول الرسول ورغباته فقد ثبت في الصحيحين أن أبا طالب عم الرسول ﷺ كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حبا شديدا

(89) سورة القمر، الآية 45.

(90) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج. 4، ص. 267 دون تاريخ، مكتبة زهران، القاهرة، مصر.

(91) انظر الواحدى، أسباب النزول، ص. 332، ط. 1315هـ، مطبعة هندية في غيط النوبى، بمصر.

طبيعيا لا شرعيا، فلما حضرته الوفاة وحن أجله دعاه رسول الله ﷺ الى الإيمان والدخول في الإسلام فسبق القدر فيه واختطفه من يده فاستمر على ما كان من الكفر ولله الحكمة التامة في ذلك، فأنزل الله تعالى «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» (92).

6. إنه صلى الله عليه وسلم، كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزها الى القول، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالا ومجالا، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام ولا يجد في شأنها قرآنا يقرؤه على الناس (93). من ذلك قصة الأفك، حيث أبطأ نزول الوحي قرابة شهر، وظل رسول الله في حيرة من أمره لا يستطيع فعل أي شيء لتبرئة زوجه مما وقع عليها من باطل، فلو كان القرآن من صنعه ما كان أن ينتظر هذه المدة خصوصا والمسألة مسألة عرض.

7. تضمن القرآن لبعض الحقائق العلمية التي بقيت مجهولة حتى كشف بعضها في الحديث في المخابر الحديثة وعبر الأقمار الصناعية، يقول وحيد الدين خان «وتؤكد البحوث التي اضطلع بها العلماء في العصر الحاضر بطريقة مدهشة صدق تكلم النبوة التي وردت في القرآن الكريم «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد (فصلت 53)» (94).

8. إن أسلوب القرآن يخالف تماما أسلوب الحديث النبوي، رغم خروجهما من مشكاة واحدة يقول أبو البقاء «الحاصل أن القرآن والحديث يتحدان في كونهما وحيا منزلا من عند الله بدليل «إن هو إلا وحي يوحى» (النجم 4) إلا أنهما يتفارقان من حيث أن القرآن هو المنزل بالإعجاز والتحدي بخلاف الحديث وأن ألفاظ القرآن مكتوبة في اللوح المحفوظ، وليس لجبريل عليه السلام، ولا للرسول عليه الصلاة والسلام، أن يتصرفا فيها أصلا. أما الأحاديث فيحتمل أن يكون النازل على جبريل معنى صرفا فكساه حلة العبارة، وبين الرسول بتلك العبارة أولهم كما تلقفه فأعرب الرسول بعبارة تفصح عنه (95).

وبعد، تبدو لنا دعوى إنكار الوحي القرآني واعتبار محمد ﷺ هذا القرآن ومبدعه، باطلة وفاسدة ومنكرة فقد عرضنا دعواهم على أبسط القواعد العلمية، وأيسر مسلمات المنطق وعلى الوقائع التاريخية ولم تستطع أن تثبت أمامها ولو للحظة قصيرة، مما يؤكد ضعفها وتفاهتها.

(92) سورة القصص، الآية 56.

(93) محمد عبد إله دراز، النبأ العظيم، ص. 23-24، ط. الرابعة 1397هـ، دار القلم، الكويت.

(94) وحيد الدين خان، المرجع السابق، ص. 132.

(95) أبو البقاء الكليات، القسم الرابع، ص. 38.